العمل النحوى
مشكلة ونظريات للحل

بقلم

أ.د / محمد محمد فهمى عمر
عميد الكلية
ورئيس قسم اللغويات بكلية اللغة العربية
بأسيوط

العمـــــل النحـــــوى

مشـــكلة ونظـــريات للحـــل

يـــرى العلماء أن اللغـــة أداة تعبيرية للتواصـــل بين أصحابها ، تنقـــل الأفكار والعـــواطف والأخيـــنة والتجارب ، بأخصر ما يحتمله التعبـــير البشرى وهـــذا فهـــم جيـــد للوظيفة اللغـــوية ، يمكننـــا أن نضيف اليـــه عنصرا جوهرياً آخـــر هـــو العـــلاقة الحميمة بين الناطقين باللغـــة الواحدة ، وما تثـــيره فيهـــم من اندماج وتعاطف ، نجيـــز لأنفسنا أن نسميها بالانفعـــال اللغـــوى •

فالعـــربى مثـــلا اذا كـــان فى بلـــد أعجمى مقـــاطع للعربية ، وطـــرق ســـمعه عبـــارات ذات رنيـــن عـــربى ، تـــراه يدفـــع بحماسة وتـــودد الى مصـــدر الصـــوت ، ويستجيب لذلك الانفعـــال على غـــير وعى أو ارادة أو تفكـــير • وكـــذلك حـــال أبنـــاء اللهجة الواحـــدة حين يلتقـــون فى بلـــد بعيـــد عن وطنهـــم الأم ، تراهم بمثلون خليـــة يشـــد أطرافها وحـــدة اللسان وما تضمنه من حماسة وانفعـــال •

تلك حقيقـــة واقعـــة هى جـــزء من طبيعـــة الحيـــاة اللغوية • ولكى تكـــون لغـــة العـــرب قريبـــة من هـــذه الطبيعة ، لم تكتف بالتمثـــل الانسانى الخارجى للانفعـــال المذكـــور • وانمـــا أقامت بين عناصرها فى التعبـــير علاقات حميمـــة أيضـــاً ، تشـــبه ما يخالج نفـــوس أبنائهـــا من التواصـــل اللغـــوى ، وتظهـــر فى شكل تأثـــر متبـــادل بين الكلمات قلمـــا تجـــد لـــه نظـــيرا فى ســـائر اللغات •

ظاهـــرة العمـــل النحـــوى

وقد لاحظ النحاة القدماء ألوان ذلك التأثر ، وتتبعوا أمواجه ومنعطفاته ومصادره ، فتبين لهم أن التركيب النحوى عند العرب ليس جمعاً آلياً للمفردات . تحتفظ فيه كل منها بشخصيتها المتميزة كما كانت قبل ، بل هو تشكيل تعبير متفاعل يؤثر بعضه فى بعض ، وتتشرب بين عناصره ومضات من التجاوب والتعاطف ، حتى يكون وحدة حيوية متكاملة الدلالة على المعنى المقصود . فاذا دخل فى تركيب معين عنصر لغوى أو أبدل به آخر سرت أمواج انفعالية جديدة ، لتحدث ضرباً من التلوين التعبيرى ، لتوزعه تضاعيف العبارة كأمواج الكهرباء ، ويتوضح فيما حوله من المفردات ، معبرا عن الوظائف والعلاقات التى دخل لها فى الكلام ولو لاحظنا نحو :

الطفل نائم أظن الطفل نائماً كان الطفل نائماً
إن الطفل نائم كأنما الطفل نائم ..

لا تضحك وتشرب لا تضحك وتشرب لا تضحك وتشرب
لا تضحك وتشرب لا تضحك وتشرب ..

لتبدى لنا ألوان من التأثر فى الاسمين والفعلين ، لا تغيب

معالمها وصورها ودلالاتها عن دارس أو باحث . وقد يكون هذا التأثر أبعد مدى فى المكان والزمان ، كالذى تراه فى الاستدارة التشبيهية التى تشعل عدة أبيات من الشعر ، أو فى « رب » وما تمتد فيه عبارتها أحياناً من شعر أو نثر .

وفى مقابل هذا لاحظ النحاة أيضاً أن تغيرا ما فى لفظ من العبارة يصاحبه تبدل فى المعنى من جهة ، وتأثير فى الوظائف والعلاقات بين المفردات من جهة ثانية ، ووجود عناصر جديدة لما يكن لها حضور من قبل . فقولك : « العصفور داخل القفص الآن » يعنى أنه يدخله ولما يصر فيه . أما تولك : « العصفور داخل القفص الآن » فانه يعنى أنه قد دخله من قبل وهو حبيس فيه الآن ، أى أن التركيب الجديد يحمل معنى الوجود فى الداخل وهو ذو وظيفة دلالية لعنصر طارىء لم يكن له حظ فى الجملة السابقة ، ولتحقيق حضور هذه الوظيفة الطارئة والعنصر الدخيل ، وتلمس وجوده ، ترى أنك تستطيع استبدال العصفورة بالعصفور فى الجملة الثانية ، فتقول العصفورة داخل القفص الآن . ويتعذر عليك ذلك فى الجملة الأولى إذا لم تلحق التاء قائلا : العصفورة داخلة القفص الآن . والسر فى هذا أن « داخل »

فى هـذه الجملة هـو فعـل الحيوان نفسـه ، فى حين أنـه فى الجملة الثانيـة هـو ظـرف لا صلة لـه بمـا يعمله الحيوان ، وانمـا يحـدد مكـان ذلك العمـل ويحيط بـه فى الوجـود .

وعلى ذلك نستطيع أن نفهـم معنيين مختلفين لقـول الشاعر :

أحبـك ، يا ظـلوم وأنت مـنى
مكـان الـروح من جسـد الجبـان

إذا روى برفـع « مكـان » ونصـبه . فالرفـع يعنى أن المخاطبة هى المكان الذى تسكنه روح الجبـان فى حين أن النصـب معنـاه كونهـا هى فى مكـان روح الجبـان ، تحـل محلها وتقـوم مقامهـا من جسـمه . وفى ضـوء هـذا نـرى أن آخـر بيت النمـيرى :

فأوقدت نارى ، ثم أثقبت ضوءها
وأخرجت كلبى ، وهو فى البيت داخله

إذا أغفلنـا ما قبـله فى العجـز يحتمـل أن يكـون الدخول حاصـلا ماضـياً ، أو أنـه جـار آنذاك ولكن إذا راعينـا قـوله « فى البيت » وأضفنا اليـه « أخرجت كلبى » تعيـن المعنى الأول . وأصـبح الثـانى قصـياً . ولـو استخدمنا مصطلحات النحويين والبلاغيين لقلنـا : إن « داخـل » خبـر ثـان للضمير « هـو »

والخبـر الأول هـو متعلق الجـار والمجـرور . وقـد يكـون « داخـل » بدلا من الخبر المحذوف ، جيىء بـه للتوكيد والتحقيق ، وهـذا خـلاف ما ذهب إليـه ابن جنى والمرزوقى (١) . حين زعمـا أن البـدل هـو من « فى البيت » لا من الخبـر المحذوف . ولـو صـح ما ذهبـا إليـه لكانت الرواية « داخـله » لأن محـل الجار والمجـرور هـو النصـب ، والبـدل تابـع لمـا أبـدل منـه .

فـان قيـل : لعلهما يريدان بالجار والمجرور المتعلق المحذوف ، فتسمحا فى التعبـير جـريا على عـادة النحـاة ، أو مرادهما أن الشـاعر قصـده نصـب الـلام ، ورفعهـا تهـرب من الاصراف .

قلنـا : يدفـع هـذا وذاك ما فسـر بـه المرزوقى المـراد بنحو : زيـد داخـل البيت وخارجـه . فهـذه العبـارة نص بأن الدخول عمـل يقـوم بـه الكلب ، وليس ممـا وقـع وانتهى من قبـل .

وقـد تنبـه جمهـور النحـاة قديمـا الى هـذا التـادل فى التأثـير بين المضمون والتعبـير ، وتوقفـوا طـويلا عند مثـل : « ما أبعـد العيب » ، ليستعرضوا المعـانى المختلفة إذا فتحت الدال أو رفعت ، ونصـب العيب أو رفـع أو جـر ، ليكـون تعجب أو استفهام أو نفى ، ومن هـذا المنطلق شرعوا يتابعون انفعال المفردات

---

(١) شـرح الحماسة ص ١٦٩٧ ـ ١٦٩٨ .

والتراكيب ، ويرصدون مساراته ومنعطفاته ويسجلون الخطوط البيانية الضابطة ، ليكتشفوا أسرار التعبير والحقائق التى تفسره وتبين توجاته وألوانه المختلفة .

لقد تحقق لديهم أن ثمة واقعاً نحوياً يتبدى فى التركيب ويغيب إذا تميزت المفردات وتفلتت من روابط التعبير ، ثم رأوا أن هذا الواقع حدث حاضر لاشك فيه ، يلازم الكلام العربى الصحيح . ويتلون بمقاصده وصيغه ، فما كان منهم إلا أن نسبوه الى النحو ، وأسموه بالعمل النحوى .

العمل الاعرابى

إن نسبة هذه الظاهرة الى النحو تقتضى النظر والتحقيق ، فالمشهور أن النحو هو من الزاوية النظرية(٢) : « علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، الموصلة الى معرفة أحكام أجزائه التى ائتلف منها » ، وهو من الناحية العملية(٣) : « انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من اعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير » وإذا حللنا كلا المعنيين تبين أن النحو يضم أحكام صيغ المفردات متميزة ، وأحكام

(٢) المقرب ص ٤٥ .
(٣) الخصائص ١/٣٤ . وانظر ظاهرة الاعراب ص ٢٠ — ٢٢ .

تراكيبها فى كلام ، أى يضم ما يعرف **بالاعراب والصرف** خلافاً لبعض المتأخرين والمعاصرين ، فى حين أن العمل الذى نحن أمامه إنما يتبدى فى التراكيب ، لا فى صيغ المفردات . أى فى الاعراب دون الصرف . ولذا ترانا نصيب كبد الحقيقة إذا نسبناه الى الاعراب وحده ، ونفيا نسبته الى النحو كله ، لتزيل ما قد يعترى الأذهار من تدخله فى بنى الكلمات مفردة قبل التركيب . إنه إذاً عمل اعرابى .

ولكى يكون بحثنا مبنياً على وضوح ودقة ، يجدر بنا أن نبسط الدلالة العلمية الاعراب المتسرب الى تضاعيف العمل ، سارياً فى أوصاله ومتحكماً فى مسيرته ، وهنا نجد أنفسنا ازاء مصطلح تجاذبته دلالات نحوية مختلفة يمكننا حصرها فيما يلى .

١ — الاعراب التعبيرى : **وهو التعبير عن الوظائف** التركيبية والمعانى النحوية والعلاقات والدلالات لعناصر الكلام ، بالنسق والنمط والصوت صياغة وأداء ، أو بالصوت وحده أداء وهذا — كما نرى — يقوم به المتكلم أو القارىء ، وهو أقدم معنى للاعراب فى تاريخ الاصطلاح حتى لقد نسب الى يعرب بن قحطان أنه قال(٤) :

(٤) الاكليل ٨/١٧٧ .

ولفظك أعربه ، بأحسن منطق

فانك مرهون ، بما أنت لافظ

كما نسب الى عمر — رضى الله عنه — أنه قال : « من قرأ القرآن فاعرب كان له عند الله أجر شهيد »(٥).

ولعل أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) أراد هذا المعنى ، حين ذكر أن العرب(٦) قبل الاسلام بقرون كانوا يعرفون الرفع والنصب والجر ويتداولون الاعراب ، ثم ضعف ذلك ، حتى إذا جاء الاسلام جدده أبو الأسود الدؤلى . لعله أراد هذا ، وإن كان لم يفصح بجلاء ، وخلط فى عرضه وبيانه . لأن الاعراب لغة هو الابانة ، أى الابانة عن المعانى بالألفاظ على لغة العرب .

٢ — إعراب التركيب : وهو علم الاعراب أى أصول نعرف بها أحوال تركيب كلام العرب . وهذا تراه منثورا فى كتب النحاة ، لأنه قام على دراسة الكلام العربى . وملاحظة سلوكه وخصائصه فى الجمل والعبارات ، واستخلاص القواعد والأحكام الضابطة لأدائه ، وقد ضم

(٥) كنز العمال ٤٥٧/١٠ وآداب المعلمين ص ٤٠ .
(٦) الصاحبى ص ١١ — ١٣ .

فى طياته جميع مفردات اللغة ، ولم يخص المعربات فحسب . على الرغم من أن ظاهره الاهتمام بالاعراب ، بل لقد شمل أيضاً الجمل بأنواعها ومواقعها ، مع أنها بعيدة جدا من علامات الاعراب ودلالاتها الوظيفية .

وأقدم ما عرف من هذا العلم قول على — رضى الله عنه — (٧) : « الكلام كله اسم وفعل وحرف . والاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . والفاعل مرفوع وما سواه ملحق به ، والمفعول به منصوب وما سواه ملحق به . والمضاف إليه مجرور وما سواه ملحق به » . ثم كانت بعده جهود أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٥ هـ) فى كتابه « المختصر » وجهود تلاميذه ومن خلفهم فى الآثار الباقية حتى يومنا هذا .

٣ — **إعراب البنية** : وهو دلالة الحركات فى بنية المفردات على المعانى الصرفية التى تضمنها ، فقد ذهب بعض المتقدمين من النحاة الى أن هذه الحركات وما يشبهها هى إعراب أيضاً ، فقولك « مضرب » يختلف معناه بكسر الميم وضمها

(٧) أمالى الزجاجى ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، ومعجم الأدباء ١٤ — ٤٨ — ٥٠ ، ونزهة الألبا ص ٤ — ٦ ، والأشباه والنظائر ١ — ٧ — ٨ ، وشرح قواعد الاعراب ص ٦٣ .

وفتحها . مع فتح الراء وكسرها . وكذلك « همزة » بضم الهاء مع فتح الميم وسكونها ، وفتح الهاء مع فتح الميم وسكونها أيضاً . وفى الأفعال يبدو الاختلاف الدلالى كذلك ، فقولنا « علم » يكون لضبط العين واللام أثر ظاهر فى تغير المعنى بين المعلوم والمجهول والتعجب ، وكون العلم كالغريزة والسجية ، ثم إن الفرق واضح بين « يدق » بكسر الدال ، وبينه بضمها .

ولسوف ترى أن أبا الأسود الدؤلى ، حين قام باعراب ، القرآن الكريم ونقط المصاحف ، ضبط بذلك حركات بنية الكلمات وحركات أواخرها . فكان أول من حقق معنى إعراب البنية ، كما بسطنا . ولما استبدل الخليل بن أحمد الحركات بتنقيط أبى الأسود جعلها شاملة للبنى وللأواخر : فكان ذلك تأكيدا لما ذهبنا إليه . وهذا ما لم أجد من تنبه له أو نبه (٨) .

وعندما عرض الفراء (ت ٢٠٧ هـ) للآية الكريمة : « **وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا** » (٩) قال (١٠) : الذين قالوا « تلوا » أرادوا « تلؤوا » . فيهمزون

(٨) دراسات فى تاريخ الخط العربى ص ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٢ .
(٩) سورة النساء آية : ١٣٥ .
(١٠) معانى القرآن للفراء ١/٢٩١ .

الواو لانضمامها ، ثم يتركون الهمز فيتحول إعراب الهمز الى اللام ، فتسقط الهمزة .

فقد جعل — كما ترى — حركة الهمزة إعراباً ، وهى ليست مما يسمى كذلك . ثم عبر عنها بالاسم نفسه ، مع أنها أصبحت على فاء الكلمة وكانت من قبل على عينها ، ومثل هذه الحركة بعيد جدا عما ألفه الناس من الاعراب ، إلا أنه بلا شك — ذو دلالة معنوية أو صرفية أحياناً لا يستهان بها .

٤ — **الاعراب التحليلى** : وهو (١١) تمييز العناصر اللفظية للعبارة ، وتحديد وظائفها التركيبية ومعانيها النحوية وعلاقاتها الاعرابية ، وذكر الأدلة على ذلك بالنسق والنمط والصوت ، لفظاً أو تقديرا أو محلا . ولا يقتصر هذا الضرب من الاعراب على معرب الكلمات أيضاً ، بل يضم المبنيات منها ، ثم يتناول أشباه الجمل ، ثم الجمل التى هى مركبات تعبيرية ولا تحتمل رموز الاعراب .

وقد ظهرت بوادر هذا الضرب فى نقط أبى الأسود الدؤلى للمصحف الشريف ، حين ثبت الرموز الصوتية للاعراب ، ووضحها لتلاميذه حتى قيل (١٢) : « إن حر بن عبد الرحمن النحوى

(١١) المورد النحوى الكبير ص ٨ — ١٢ .
(١٢) بغية الوعاة ١ : ٤٩٣ .

سمع أبا الأسود ، وطلب عنه إعراب القرآن أربعين سنة » . فلو كان الاعراب مقصورا على النقط المجرد لما احتاج عالم نحوى الى هذا الزمن لضبطه وتعلمه ، فلابد أنه كان مع تلك الاشارات دراسة وتحليل وحوار وبيان لبعض الوظائف والمعانى والعلاقات ، مع ذكر الأدلة المناسبه آنذاك .

ولقد وصلت إلينا شذرات من التحليل الاعرابى فى منتصف القرن الأول وما بعده تمثل المعالم العملية وحدودها ، وتقرب إلينا البوادر الأولى وما يبنى عليها من تطور ونماء . قال أبو الأسود الدؤلى (١٣) « من العرب من يقول ، لولاى لكن كذا وكذا » .

وقال الشاعر (١٤) :

ركم منزل لولاى طحت كما هوى

بأجرامه ، من قلة النيق منهوى !

وكذلك « لولا انتم ولولاكم ابتداء وخبره مخذوف » .

وروى عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) — رضى الله عنهما — أنه

---

(١٣) العقد الفريد ٢ : ٤٨٥ .

(١٤) يزيد بن الحكم الاملى ١ : ٦٨ — ٦٩ ، والخزانة ١ : ٤٩٥ — ٤٩٩ .

سئل عن قول الله تعالى (١٥) : « فالحق والحق أقول » لم رفع الأول ونصب الثانى ؟ قال : أى : هو الحق وأقول الحق (١٦) ، كما روى عنه أنه علق على نصب الأرجل من قول الله سبحانه (١٧) : « **إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق — وامسحوا برؤوسكم — وارجلكم الى الكعبين** » بأن قال : عاد الأمر الى الغسل (١٨) .

ثم توالى تلاميذ أبى الأسود وابن عباس ، يروون عنهما الأعاريب ، ويولدون منها نمادج غفيرة ، سوغت لهم ولمن تخرج عليهم أن يتصدروا المجالس العلمية ويحللوا نصوصاً من القرآن الكريم وغيره تحليلا فيه لمسات من الاعراب الذى نحن بصدده ، هذا زهير الفرقبى — وهو نحوى قارىء دوفى أخذ عن تلاميذ أبى الأسود ولقب بالكسائى يروى عنه الهيثم بن عدى أنه كان يجتمع عليه الناس ، يسألونه عن القراءات والعربية ، وهو يجيبهم ويحتج على ما يقول بأشعار العرب (١٩) .

---

(١٥) سورة ص آية : ٨٤ .

(١٦) شرح قواعد الاعراب ص ٦٣ — ٦٤ ، وانظر تنوير المقياس ص ٢٨٤ .

(١٧) سورة المائدة آية : ٦ .

(١٨) تفسير الطبرى ١٠ : ٥٥ .

(١٩) انباه الرواة ٢ : ١٨ .

وهـذا ابن أبى اسحاق الحضرى (ت ١١٧ هـ) ، أصبح ينافس محمـد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) فى مجالس المسجد الجامع بالبصرة ، حتى جعـله يقـول (٢٠) : « لقـد بغض إلينـا هـؤلاء المسجد وكانت حلقتـه الى جـانب حلقـة ابن أبى اسحاق • وبلـغ ابن أبى اسحاق أنـه يعيب عليـه تفسـير الشعر ويقـول : « ما علمـه بارادة الشـاعر » ؟ فقـال : « إن الفتـوى فى الشـعر لا تحـل حـراما ولا تحـرم حـلالا • وإنمـا نفتى فيمـا استنتر من معانى الشـعر وأشـكل من غريبه وإعرابه ، بفتـوى سمعناها من غيرنا ، أو اجتهدنا فيهـا آراءنـا ، فـان زللنـا أو عثرنا فليس الزلل فى ذلك كالزلل فى عبـارة الرؤيـا ، ولا العثـرة فيـه كالعثـرة فى الخـروج عمـا أجمعت عليه الأئمـة من سـنة الوضـوء ، وكرهته الجمـاعة من الاعتداء فى الطهـور » • فبـلغ ذلك ابن سيرين ، فأقصـر عمـا كـان عليـه من الافـراط فى الوضـوء ، وأصـبح إذا جـاءه الرجـل يسـأله عن الرؤيـا يقـول : هـات حتى أظـن لك • وأصـبح ابن أبى اسحاق ، بعـد أن بلغـه كلام ابن سيرين ، يقـول : أظـن الشـاعر أراد كـذا ، واللغـة توجب كـذا •

والمفضل الضـبى (ت ١٧١ هـ) راوى الكـوفة وعالمها يتـأثر خطـوات شيوخه ومعاصريه من رجـال المدينتين ــ فيعرض لبعض النصوص محـللا معـربا • فقـد أنشـد قـول قيس بن زهـير

(٢٠) ابنـاه الـرواة ٢ : ١٠٦ ــ ١٠٧ .

وإن شـمرت لك عـن سـاقها

فويهـا ، ربيـع ، فـلا تسـأم

ثـم قـال إذا نصـبت « ربيـع » أراد الترخيم ، يا ربيعة • فلمـا حـذف الهـاء الترحيـم تـرك العين مفتوحة ، ومن رفـع ذهب بـه مذهب الاسـم التـام المفـرد ، وإن كـان مرخمـا ، كقـول ذى الرمـر : فيـامى ما يدريك (٢١) •

ولا يخفى ما كان يومئذ لدى أبى عمرو بن العـلاء (ت ١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) والكسائى (ت ١٨٩ هـ) والفـراء (ت ٢٠٧ هـ) ومن خلفهـم فى متابعـة التحليل الاعرابى بين ثنـايا المصنفات والمجـالس والمناظـرات •

٥ ــ الاعـراب الصـوتى : وهـو تلوين أواخـر الكلمـات المعـربة ، بمـا يناسب التركيب من رفـع ونصب وجـر وجـزم ، أو تغيـير هـذه الأواخـر للدلالة على الوظـائف التركيبية لهـا تبعـاً لمقتضيات العـوامل • وقـد اختلف النحـاة فيـه : ألفظى هـو أم معنـوى ؟ وعنـدى أنـه يضـم الجانبين لأنـه لفـظ مخصوص يـدل على وظيفـة تركيبية وموقـع نحـوى •

ولاشـك أن العـرب كـانوا يجـرونه فى كلامهم وكتاباتهم قبـل الاسـلام ، ثـم نـزل القـرآن الكـريم ، فـزاده وضوحا

(٢١) أمثـال العـرب ص ٣٩ ــ ٤٠ .

وتحقيقا واستعمالا ، — حتى روى عن النبى — عليه السلام — أنه قال « أعربوا القرآن » (٢٢) وعن أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — قوله (٢٣) « لتعلم إعراب القرآن أحب الى من تعلم حروفه » وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — « تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه » (٢٤).

ثم تتبع أبو الأسود مظاهر هذا الاعراب ، ورصد صورها وأشكالها ، وشرع فى تثبيتها فى المصحف الشريف . قال (٢٥) : « رأيت أن أبدأ باعراب القرآن » . وأمر أحد تلاميذه بقوله « خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد ، فاذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فأجعل النقطة الى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقط فى أسفله ، فاذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات بغنة

---

(٢٢) المستدرك ٢ : ٤٣٩ . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الاسناد على مذهب جماعة من ائمتنا » وزاد عليه بعض الرواة « فان الله يحب أن يعرب آى القرآن » الورقة ٢٢٣ من المنخل فى اعراب شواهد المفصل .

(٢٣) تنبيه الالباب على فضائل الاعراب ص ٧٦ ، والوقف والابتداء ١ : ٢٠ .

(٢٤) اعراب القرآن للنحاس ١ : ١١٥ — ١١٦ .

(٢٥) ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٨ والمحكم فى نقط المصاحف ص ٧ ومراتب النحويين ص ١٠ .

فانقط نقطتين ، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره ، ثم وضع كتابه المعروف باسم « المختصر » ولابد من الاشارة هاهنا الى أن هذا الاعراب لم يكن مقصورا على أواخر الكلمات المعربة . وإنما شمل جميع الكلمات دون تمييز ، برمتها ، فضبط كل الحروف بما ذكر ، وكان فيه تحقيق لما ذكرناه فى إعراب النبية من قبل . وهذا ما تنبهت له ، ولم أجد من ذكره قبل .

غير أن خلفاء أبى الأسود استطاعوا تمييز هذا النوع الجانبى المعروف من الاعراب ، حين اكتشفوا ما أسموه بالبناء ، وأصبح لديهم ماهو معرب وماهو مبنى . ثم جاء الخليل ابن أحمد فهذب أسلوب الدؤلى فى الضبط ، ووضع الحركات المتعارفة الآن .

ونحن لو استرجعنا تلك الأنواع من الأعاريب ، وتصفحنا جوانبها ، لرأينا الأخير منها هو الذى يمثل العمل الاعرابى ، بيد أن كثيرا من النحاة القدماء تسامحوا فى التعبير فتوهم عليهم ما لم يقصدوا ، ومن ثم بدا فى كتب المتأخرين والمعاصرين تخليط ظاهر فى توظيف كل من هذه المصطلحات ، واستخدامه فى مكانه الملائم من البحث والدراسة وكثر الخلاف والحجاج نتيجة لذلك التخليط (٢٦) .

---

(٢٦) ظاهرة الاعراب ص ١٥ — ١٨ ، دراسات فى الاعراب ، ص ١١ — ١٦ .

نظـــريات تفســـر العمـــل

عندما تتصفح كتب النحـو القديمة تجـد حديثا مفصـلا عن الاعـراب الصوتى ، وتعبـيرا عنـه بأنـه عمـل لغـوى ، يقـوم على أثـر ظاهـر فى كثـير من كلمـات التركيب النحـوى إلا أن هـذا التعبـير وذلك العـرض لـم يحـاولا وضـع تفسـير محدد لآليـة ذلك العمـل المذكـور ، وإن كـانا قـد رجعـا بـه الى الحاجات التركيبية التى تعتـور الكلمـات فى العبـارة ، وتحملهـا دلالات إعرابية مختلفـة ، تقتضى صـورا صوتية تلازم كـلا منهـا ، وتـدل عليهـا السـامع والقـارىء لتحـدد المـراد .

فالعمـل الاعرابى — كمـا تـرى — ظاهـرة حاضرة فى أذهان المتكلمين والسامعين ، ولدى الكتـاب والقـراء والباحثين فى المجال اللغـوى ، والحديث عنهـا مستفيض يشغل جميع الكتب والرسائل النحـوية ، ويعرض نمـاذج كثيرة جـدا تحقق ما ذهبنـا إليـه . وتحمل الدارس على الاهتمام بهـا ومتابعة استطالاتها ، إلا أنهـا ، مع هـذا لـم تـول حقهـا من البحث الدقيق ولـم يوضع لهـا حـل واضـح فى تلك المصـادر القديمة ، وقـد حـاول كثـير من النحـاة والدارسين بعـد أن يتناولوها بالتفسـير ، ويردوها الى أسـباب مبـاشرة أو غـير مبـاشرة ، يمكننـا استعراضها كمـا يـلى :

١ — النظـــرية اللفظيـــة :

تـرى فى مصـادر التراث النحـوى عبـارات تنسب العمـل الاعرابى الى الألفـاظ ظاهـرة أو مقـدرة . فالخليـل بن أحمـد (ت ١٧٥ هـ) جعل (٢٧) « نعـم وبئس » وأخواتهما تنصب النكرة وترفـع المعـرفة ، وجعـل « أن » تنصـب الأسماء ، و « مـذ ومنـذ » ترفعـان ما بعدهما وتجـرانه . وذكـر الرفـع بـ « هـل » وأخواتها من حـروف الرفـع ، والجـر بـ « عـن » وأخواتهـا وذكـر أيضـاً أن الفـاعل يرفـع بفعـله ، والمبتدأ يرفـع بالابتداء ، والمفعول بـه يوقـع عليـه الفعـل ، وأشـار الى العمـل الاعـرابى حين ذكـر لغـة تميـم فى « ليتمـا » .

وخلف الأحمـر (ت ١٨٠ هـ) يضـع فى مقدمته (٢٨) أبواباً للحـروف التى ترفـع والتى تنصب والتى تخفض والتى تجـزم ، ثـم يجعـل « إن » وأخواتهـا ناصـبة للأسماء والنعـوت ورافعة للأخبـار ، و « كـان » وأخواتهـا رافعـة للأسماء والنعـوت وناصـبة للأخبـار ، و « أن » وأخوتهـا ناصـبة للأفعـال ، و « منـذ » خافضـة و « مـذ » خافضـة ورافعـة ، و « رب »

---

(٢٧) الجمـل فى النحـو ص ٧٠ ، ١٢٨ ، ١٣٥ — ١٣٧ ، ١٦٧ ؛ ١٧٢ ، ٢٠٢ ، ١٥٨ ، ٣٦ ؛ ٩٤ . وانظـر ص ٣٤ — ٣٥ ؛ ١٧٢ : ١٩٠ .

(٢٨) نصوص نحوية ص ١٢ — ١٤ و ٢١ ، ٢٥ — ٢٦ ، ٣٠ ؛ ١١ .

و « كم » خافضتين فحسب . كل ذلك تفصيل لما نص عليه فى خطبه كتابة من مجموع العوامل .

أما سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فقد كان أبعد فى التعبير عن هذا المعنى ، إذ صرح بلفظ العامل مرارا ، وذكر (٢٩) أن النصب والجر والرفع والجزم تحدثها العوامل التى لكل منها ضرب من اللفظ فى حرف الاعراب ، وأن الفتح والكسر والضم والوقف بناء لا يزول ولا أثر للعوامل فيه ، وأن العرب إذا أعملت شيئا مضمرا لم تخرجه عن عمله مظهرا فى الجر والنصب والرفع ، وأن ما يعمل فى الأفعال لا يعمل فى الأسماء ، وما يعمل فى الأسماء لا يعمل فى الأفعال .

وكذلك كان شأن من عاصر هؤلاء أو خلف بعدهم ، فالفراء يقول (٣٠) : أعمل فى « ما » و « أى » الفعل الذى بعدهما ولا تعمل الذى قبلهما إذا كان مشتقا من العلم ، والظن ناصب ، و « كان » و « ليس » يرفعان ، و « إن » وأخواتها بنصبن : ولما حذف الناصب رفعت ...

---

(٢٩) الكتاب ١/٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٤٠٩ .

(٣٠) شرح الأشمونى وحاشية الصبان ١ : ١٩٣ ، ٢ : ٤٣ ، ٨٧ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ؛ ١٤٣ ؛ ٢٣٨ .

ولقد تلبث النحاة بعد هؤلاء أمام تلك العبارات وأمثالها يتناولونها بالبحث والتأويل فكان أن حددوا مراميها بالزعم أن العامل هو الحدث بلفظه من فعل أو اسم أو حرف ثم تابعهم المتأخرون بتفسيرات وحواش وتقريرات . فاذا العامل هو اللفظ نفسه مجردا من معناه ، لأن المعانى — كما قالوا — إنما تعمل فى المبتدأ والمضاف إليه والتابع مثلا . وبذلك أصبح لديهم عوامل كثيرة بلغ عددها المائة ، فيها أصلى وفرعى ، وقوى وضعيف وملفوظ ومقدر ، وموجود ومعدوم ، ومبدل ومبدل منه ... كما تميز فيها نواصب وجوازم وحروف جر . وما يرفع وينصب ، وما ينصب ويرفع ، وما ينصب مفعولين أو ثلاثة ... وكثر الخلاف والحجاج والاستدلال ، فاختلطت تلك الأصناف والأقسام والألوان وتداخلت حتى رأينا مثلا .

رافع المبتدأ هو الابتداء أو الخبر أو الذكر الذى فى الخبر أو التجرد من العوامل أو الاسناد أو الأولوية أو الشبه بالفاعل .

ورافع الخبر هو المبتدأ أو الابتداء أو الابتداء والمبتدا أو الابتداء بوساطة المبتدأ .

ورافع الفاعل هو الاسناد أو الشبه بالمبتدأ أو الفعل وما أشبهه أو الفاعلية أو تفرغ الفعل له أو أحداثه الفعل .

ورافع الفعل المضارع هو التجرد من العوامل أو وقوعه موقع الاسم أو حرف المضارعة أو المضارعة للاسم أو الاهمال أو السبب الذى أوجب له الاعراب .

وناصب المفعول به هو الفعل وما أشبهه أو الفاعل أو الفعل والفاعل أو المفعولية ، وكذلك سائر المفعولات ، وقيل : بل ناصبها شبه المفعول به ، وزادوا فى المفعول معه الواو أو الفعل المضمر أو الخلاف ، وقيل : بالواو مهيئة لنصبه نصب الظرف « مع » .

وناصب المستثنى هو « إلا » أو ما قبلها من الفعل أو الفعل بوساطتها أو « أن » مقدرة بعدها أو « أن » فى أول « إلا » أو الخلاف أو فعل مقدر .

وجار المضاف إليه هو المضاف أو الاضافة أو حرف جر محذوف أو « عند » محذوفة .

وجازم جواب الشرط هو الأداة أو فعل الشرط أو الأداة مع الفعل أو الجواب .

وجازم جواب الطلب هو الأداة المحذوفة أو الطلب أو الأداة نائبا عنها الطلب أو معنى الجواب أو اللام المحذوفة ..

ولهذا كله ، بالاضافة الى ما انصب فيه من اعتلال وجدال وتمحل ، رأينا القاضى الظاهرى ابن مضاء (ت ٥٩٢ هـ) يضيق بالنظرية اللفظية (٣١) ثائرا عليها ومسفها إجماع النحاة وإصرارهم على تحكيمها فى موضوعات النحو والاعراب ، لأنه — كما يقول — يستحيل أن يحدث الألفاظ بعضها بعضا ، ويجب فى العامل أن يكون حاضرا حين العمل مع أنه لا يحدث الاعراب إلا بعد غياب العامل المزعوم ، وليس فى هذه العوامل ما يفعل بالارادة كالحيوان ، ولا ما يفعل بالطبع كالنار والماء .

وكان فى الشرق أيضا من نفى أن يكون للعامل اللفظى أثر حقيقى فى المعمول ، وذهب الى أن العوامل أمارات وعلامات لما يقع من الاعراب (٣٢) ، فتعقبه من أنكر عليه هذا الزعم وأسقط نتائجه (٣٣) . ثم جاء فى العصر الحاضر من يتابع الثورة على العامل اللفظى ، ويرده الى التأثر بالمنطق الأرسطى (٣٤) .

---

(٣١) الرد على النحاة ص ٨٧ — ٨٨ واصول النحو العربى ص ٢٥١ — ٢٥٢ ، ٢٧٨ ، والخصائص ١ : ١٠٩ .

(٣٢) أسرار العربية ص ٦٨ — ٦٩ والانصاف ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣٣) شرح المفصل ١ : ٨٤ — ٨٥ .

(٣٤) اصول النحو العربى ص ٢٣٩ ، ٢٧٣ وانظر النزعة المنطقية فى النحو العربى ص ٤٧ — ٥٠ وظاهرة الاعراب ص ٦٨ — ٧٤ والمفتاح لتعريب النحو ص ٢٠٩ .

٢ ـ النظرية المعنوية :

اعتاد النحاة القدماء أن يكون لديهم ، مع التفسير اللفظى للاعراب شذرات تنسب الى المعانى الاعابية عملا فى المفردات ، فأنت تقف على كثير من العبارات فى كتبهم يجعل للمعانى التى هى وظائف تركيبية أثرا صوتيا فيما يمثله من الكلمات ، ويصطلح له اسما يعبر عنه فى التركيب . وقد عرضت فيما مضى نماذج كثيرة تضم بعض هذه التسميات .

وأنت تراه مبثوثاً ، على غير نظام ، فى المصادر النحوية الأولى ، وما سار على هديها ، ففى الجمل للخليل (٣٥) : النصب أحد وخمسون وجهاً : نصب من مفعول ونصب من مصدر ... والرفع اثنان وعشرون وجهاً : الفاعل وما لم يذكر فاعله ... والخفض تسعة : خفض بالاضافة وخفض بالجوار ... والجزم اثنا عشر وجهاً : جزم بالأمر وجزم بالنهى وجزم بجواب الأمر والنهى بغير الفاء وجزم بالمجازاة وجزم بخبر المجازاة وجزم بالوقف وجزم بالدعاء ..

وهذا خلف الأحمر يقول (٣٦) كل مضاف أضفته الى

(٣٥) الجمل ص ٣٤ ، ١١٧ ، ١٧٢ ، ١٩٠ .
(٣٦) نصوص نحوية ص ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ؛ ٢٢ ؛ ٢٥ .

شىء فالمضاف إليه خفض والرفع يأتى من ستة وجوه وهى الفاعل وما لم يسم فاعله والابتداء والخبر واسم « كان » وخبر « إن » ، والنصب يأتى من اثنى عشر وجهاً ، وخبر المعرفة منصوب أبدا نحو : هذا بعلى شيخا والنداء المفرد رفع ، والنداء المنسوب نصب كله ، والندبه منصوب ، والاستثناء نصب كله والتحقيق رفع كله ، والتحذير والاغراء منصوبان ...

وهذا الفراء يقول (٣٧) : ولو كان « اللسان » مرفوعا لكان صواباً على أنه نعت ، « ومن » فى موضع رفع ، و « المقيمين » موضعه خفض ، وتكون « أن » فى موضع رفع وإن شئت كانت فى موضع نصب ، وجاز النصب على الجواب والرفع على الاستئناف ، والنصب جائز على الصرف . و « فاطر السماوات » مخفوض فى الاعراب تجعله صفة من صفات الله تعالى ، ويرفع « خالق » على الابتداء وعلى أن يكون خبرا ، و « ذكرى » فى موضع نصب ورفع ...

فان قلت هذه العبارات ليست نصاً بالعمل المعنوى ، وتحليلها فى تلك المصادر يحتمل العمل اللفظى أو الانسانى ، قلنا : نعم فهى تحتمل ما ذهبنا إليه وما ذكرت .

(٣٧) معانى القرآن ١ : ٥٦ ، ٦٥ ، ١٠٧ ، ٢١١ ؛ ٢٧٦ ؛ ٣٢٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠ .

وهاهى ذى أمثلة أخرى تأبى الاحتمال ، وتؤكد العمل المعنوى فى الاعراب ، فالمبتدأ مرفوع (٣٨) عند سيبويه بالابتداء ، وقيل : هو مرفوع بالاسناد أو بشبه الفاعل أو بالاخبار عنه . والخبر مرفوع عنده بالابتداء أو بالابتداء مع توسط المبتدأ . والفعل المضارع مرفوع عند البصريين بحلوله محل الاسم أو بالمضارعة للاسم أو بالاهمال ، والفاعل مرفوع بالاسناد أو بالفاعلية أو بشبه المبتدأ أو باحداث الفعل ، ونائبه مرفوع بالنيابة عنه . والمفعول به منصوب بالمفعول وكذلك سائر المفعولات أو بشبه المفعول به ، الا المفعول معه قيل : إنه منصوب على الخلاف والمستثنى والظرف الواقع خبرا أيضا منصوبان بالخلاف ، واسم « كان » وأخواتها مرفوع بشبه الفاعل ، وخبرها منصوب بشبه المفعول . والمضاف إليه مجرور بالاضافة . وجواب الطلب مجزوم بالطلب أو بمعنى الجواب . والصفة معربة بالوصف لصاحبها ، والتوكيد والبدل بالتبعية .

تلك صور من النظرية المعنوية ، تجعل العامل فى المفرد هو الوظيفة الاعرابية التى يمثلها ، ولو جمعت بقية الصور الشبيهة بها كان عندك اتجاه معنوى واضح فى تفسير

---

(٣٨) الأشباه والنظائر ١ : ٢٣٧ — ٢٣٩ .

العمل الاعرابى ، استجاب له بعض المعاصرين وجعلوه النظرية المثلى فى فهم ظواهر الاعراب (٣٩) بيد أن هذه المحاولات لا تستوعب كل ألوان التغيرات الصوتية فى التركيب ، نحو اسم « إن وأخواتها وخبرها ، وبابى الاشتغال والتنازع ، والحال والتمييز ، والمجرور بالحرف ، والمنصوب بنزع الخافض ، والفعل المضارع بعد النواصب والجوازم ، وأساليب القطع والمدح والذم ، والاسم بعد حروف العطف ... وقد سفه ابن مضاء هذه النظرية ونفى الفضل عمن يدعيها (٤٠) .

ثم هى تقيم احكامها على أن العلاقات النحوية وظائفها أمور معنوية خالصة ، فتكون محدودة الأبعاد ، إذ تغفل مافى التركيب من علاقات لفظية ، تتغلب أحياناً على المعنوية ، فالمبتدأ والفاعل فى المعنى قد يكونان مجرورين نحو : هل عندك من سؤال ، وكيف بزيد ؟ وأعجبنى صدق أخيك ، والمجرور بالحرف ينصب إذا نزع الخافض نحو : قعدت طريق السوق ، والمنصوب قد يجر أيضاً نحو : « هل ترى من

---

(٣٩) أصول النحو العربى ص ٢٦٩ — ٢٧٠ والنحو الوصفى ص ٦٨ — ٧٢ واحياء النحو ص ٥٠ — ٦٤ وفى النحو العربى ص ٢٨ .
(٤٠) الرد على النحاة ص ٦٩ ، ١٢٦ .

غطور » ، و « ألست بربكم » ، « ولا الليل سابق النهار » .

والصفة قد تخالف الموصوف نحو : لجأت الى صديق كريمة أخلاقه ، وأصبح أخوك بعيدا نظره ، فكريمة و « بعيدا » هما صفتان فى المعنى مخالفتان للموصوف الذى صار فاعلا فى التركيب . وإذا تقدمت الصفة على الموصوف مضافة اليه أو غير مضافة خالفته أيضا فى الاعراب ، نحو : هذا مجرد ادعاء ، ولمية موحشا طلل ، بل قد تخالفه وهى بعده نحو : حلى وراءه رجال قياماً ، ومررت بماء قعدة رجل ، وعليه مائة بيضاً .

والميز للمبهم يتاون بأعاريب مختلفة نحو : عندى خمسة أقلام وعشرون كتاباً وستة دفاتر ، وهذا خاتم ذهبا وخاتم ذهب وخاتم ذهب وخاتم من ذهب والجواب بجزم ويرفع وينصب نحو : اجتهد تنجح ، واجتهد فتنجح ، وإن تجتهد تنجح ، تنجح إن اجتهدت ، واذا يشاء يفعل ، والخلاف المزعوم فى الظرف المخبر به هو نفسه فى المبتدأ كما هو فى الخبر نحو : الكتاب أمامك . فلماذا يقتصر النصب على الظرف دون الاسم قبله ، وكلاهما فى خلاف ؟ والمنادى ينصب ويضم نحو : يا رجلا ويا رجل ويا عبد الله ويا محمد ويا أميمة .

ثم إن الخلاف بين اللهجات والتقديرات الصناعية يولد أعاريب مختلفة للعبارة الواحدة نحو : إن حراسنا أسد أو أسداً ، وليت العمر شباب أو شباباً ، وكأن زيدا بحر أو بحرا وما هذا بشر أو بشرا ولا حول ولا قوة إلا بالله أو لا حول ولا قوة إلا بالله . وما جاء أحد إلا زيد أو زيداً . ولم ينجح إلا علياً أو على ، على بن أبى طالب أو ابن أبو طالب ، وكان مزاجها عسل وماء أو عسلا وماء ، و « ليجزى قوم بما كانوا يكسبون » أو قوما والسماوات مطويات بيمينه أو مطويات ، وزيد أظن ناجح أو زيدا أظن ناجحاً ، وتقول أخوك كريم أو أخاك كريماً . ويا محمد بن عبد الله أو محمد ...

والمفروض فى النظرية العلمية التى تعرض لظاهره بالتفسير أن تضم جميع العناصر المكونة لها ، وتضع حلا شاملا يستوعب تلك العناصر ، ولا تخل بجانب لتشغل بآخر ، أو تهتم بقسم وتهمل الباقى . والظاهر أن النظرية المعنوية لم تستطع ذلك حتى الآن .

٣ ــ نظرية التعليق :

يرى بعض النحاة أن العمل الاعرابى حصيلة لتشبث

الكلمة بما يتمم معناها (٤١) . ذلك أن الاسم له معنى مستقل غالباً ، ولا شبث له بغيره ، فليس له عمل أصلا . أما الفعل فيدل على معنى فى الفاعل ، وهو كونه مخبرا عنه . ثم إن تضمنه للحدث هو باشتقاقه من المصدر . وعلى ذلك كان لا يدل على معنى فى نفسه بالمطابقة كما يدل المصدر نحو : الضرب والجلوس والدفع والجمع . وهذا القصور فى الدلالة يعنى حاجته الى الفاعل ليحقق فيه معناه ويتمم مقصده ، ومن ثم حملته هذه الحاجة على التعلق بالاسم ، وأحبيت له أن يكون عاملا فيه . وكذلك الحرف يدل على معنى فى غيره من اسم أو فعل ، فواجب أن يكون عاملا حقيقياً فى كل ما دل على معنى فيه . وهذا التشبث للحرف بما بعده معنى يترتب عليه تشبث لفظى هو ما نسميه بالعمل .

وقد تناول التهانوى (ت ١١٥٨ هـ) هذا التوجه ، وفسره من زاوية أخرى فقال (٤٢) : تعلق الفعل وما أشبهه بالاسم المتمكن سبب لثبوت وصف فيه ، كالفاعلية والمفعولية والاضافة ، وهذه معان معقولة تستدعى نصب علامة يستدل بها عليها .

---

(٤١) نتائج الفكر ص ٦٨ ، ٧٤ — ٧٥ .
(٤٢) كشاف اصطلاحات الفنون « عامل » .

فالاعراب الذى هو الرفع والنصب والجر دلائل عليها ، والمعانى هى مقتضيات الاعراب ، والكلمات التى تعلقها بالاسم المتمكن سبب لحدوث هذه المعانى هى العوامل .

فالعامل إذاً هو اللفظ المسبب للاعراب نتيجة تعلقه بما هو معرب لفظاً أو تقديرا أو مجالا . وذلك بعد تدخل الوظائف والمعانى التركيبية . وفى هذا شبه مبدئى بما ذهب إليه بعض المتأخرين حين جعل العامل (٤٣) سبب الوظائف المعتورة للألفاظ ، والوظائف سبباً للعلامات ، ونحن هنا أمام مرتبتين لا مرتبة واحدة . فالفاعلية والمفعولية والاضافة معان تسببها عوامل لفظية أو معنوية ، فاذا هى وظائف تستدعى نصب علامة عليها هى الاعراب ، ومن ثم كان العامل اللفظى أو المعنوى هو ما به يحصل المعنى الطالب للاعراب .

والظاهر أن هذه التوجيهات السببية لا تشمل جميع صور الاعراب بالتفسير الكامل ، فالفعل المضارع ينصب فى النفى بـ « لن » ويجزم فى النفى بـ « لم » و « لما » ،

---

(٤٣) حاشية الصبان ١ : ٤٧ وأسرار النحو ص ٧٧ — ٧٨ والنحو الوافى ١ : ٧٤ ومصدر هذه التوجهات تعريف ابن مالك الاعراب فى ص ٧ من التسهيل .

وهو يجزم أيضا فى الشرط بـ « إن » وأخواتها ، ويبقى على رفعه فى الشرط بـ « إذا » وأخواتها والاسم ينصب ويرفع بـ « إن » وأخواتها ثم يستقل بدخول « ما » عليها ، وهو ينصب بالفعل مفعولا لأجله ويجر بالحرف للمعنى نفسه ، ثم إن المصدر الذى هو أصل فى الاستقلال المعنوى ينصب المفاعيل ويرفع الفاعل وتتعلق به أشباه الجمل ، فكيف يكون دالا على معنى فى نفسه ، ثم يحتاج الى تشبث بما يتمم معناه ؟

٤ ـ النظرية الصوتية :

لقد تابع بعض المعاصرين ابن مضاء فى ثورته على العامل اللفظى ، وأضافوا إليها تسفيها لأحلام القائلين به ، وأدلة كثيرة يتعذر حصرها فى هذا المقام ، ثم نسبوا الى الخليل ابن أحمد (٤٤) أنه أول حامل للواء هذه الثورة ، حين جعل حركات الاعراب وسيلة للتوصل الى تيسير النطق بالكلام ، لا علامات لمعان أو وظائف تعبيرية أو أثر لفظى ، أما ما اعتمدوه فى نسبتهم هذه فهو قول سيبويه (٤٥) : « وزعم الخليل

(٤٤) من اسرار اللغة ص ٢٣٧ ، مدرسة الكوفة ص ٢٤٤ ، فهارس كتاب سيبويه ص ١٠٠ ـ ١٠٢ ، وابحاث فى اللغة العربية ص ٩٨ ودراسات فى الاعراب ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٤٥) الكتاب ٢ : ٣١٥ .

أن الفتحة والكسرة والفتحة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به . والبناء هو الساكن الذى لا زيادة فيه ، فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو ، فكل واحدة شىء مما ذكرت لك » .

ولو رجعت أنت الى هذا النص ، فى سياقه ودلالاته ، لتبين لك غير ما فهم من هؤلاء فقد أورده سيبويه فى « باب حروف البدل » وأورد بعده « باب ما بنت العرب من الأسماء والصفات » الأمر الذى يشعر أنه يعرض لموضوعات صرفية عن المقاصد الاعرابية . ويرجح هذا أن السيرافى (ت ٣٦٨ هـ) علق عليه فى شرحه للكتاب بما يحصره فى بنية الكلمة ويحصه بالزاوية الصوتية للصيغ ، قال السيرافى (٤٦) : « يعنى أن الفتحة تزاد على الحرف ، ومخرجها من مخرج الألف ، وكذلك الكسرة من مخرج الياء ، والضمة من مخرج الواو » .

ومما يؤكد زعمنا ويقطع الشك باليقين أن الخليل هنا تعرض الفتحة والكسرة والضمة ، وهى حركات بناء لا حركات إعراب . ولو قصد الثانية لذكر النصب والرفع

(٤٦) فى حاشية الكتاب ٢ : ٣١٥ ، وانظر ص ٦٩ ـ ٧٠ من دراسات فى الاعراب .

والجر . بل لقد نص على البناء الساكن ، وبين أنه أصل الحروف قبل دخولها فى صياغة المفرد ، ثم تلحقها تلك الحركات ليتمكن الانسان من وصل الحروف بعضها ببعض ويتيسر له النطق بالمفردات ، وذلك عام لحروف الكلمة كلها ، لا خاص بآخر الكلمة المبنية كما ذهب أحد المعاصرين (٤٧) .

ثم إن قول سيبويه : « زعم الخليل » ضعف اطلاق ما ذهب إليه الخليل ، ويجعله مرجوحاً فى بعض جوانبه . ذلك لأن الحركات فى بنية الكلمة ، مع أنها تيسر النطق وتمكن من وصل الحروف فى اللفظ ، كثيرا ما تكون لمعان لغوية أو صرفية ، كالذى تراه فى فعل وفعل ويفعل ، ويفعل فى المغالبة والتعجب ، وصيغ المبالغة والمشتقات وجمع التكسير والتصغير والنسبة ... ولولا ذلك لكانت هذه الحركات الداخلية غير متعينة ولجاء تبديلها دون قيد ، ولما أجاز أبو الأسود الدؤلى وبعض الكوفيين لأنفسهم أن يجعلوها حركات إعراب تدل على معان محددة ، ويدخلوها فيما أسميناه إعراب البنية .

---

(٤٧) دراسات فى الاعراب ص ٣٧ — ٣٨ ، ٧٠ .

٥ — النظرية الخلافية :

على الرغم من إجماع النحاة على الدلالة الاعرابية للتغير الصوتى فى أطراف المفردات المتعددة اوظائف ، فاننا نرى قطربا (ت ٢٠٦ هـ) يعترض تلك الدلالة ، بل ينكرها ويسفه هذا الاجماع ، ثم يفسر التغيرات الصوتية تفسيرا قوامه أن الحركات وضعت لتخالف أصل السكون الملازم للوقف ، وليس لهذا صلة بالنظرية الصوتية ، خلافا لمن ظن ذلك .

فهو يصرح أن إعراب الكلام (٤٨) ليس للدلالة على وظائف أو معان ، بل لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون ، ولو جعل العرب الوصل بالسكون لالتبس الوقف بالادراج ، وتعسر النطق عند وصل الكلام . فلما تيسر لهم التحريك فى الادراج جعلوا الحركات معاقبة للاسكان ومساعدة على اعتدال الكلام وسهولة النطق .

وقد استدل على إبطال مذهب الجمهور ، بورود أسماء متفقة الاعراب مختلفة المعانى نحو ر إن زيدا أخوك ، ولعل زيدا أخوك ، وكأن زيدا أخوك ، وبورود أسماء

---

(٤٨) الايضاح ص ٧٠ — ٧١ والاشباه والنظائر ١ : ٧٩ ، انظر ص ٤٨ من ظاهرة الاعراب وص ٣٧ من دراسات فى الاعراب .

مختلفة الاعراب متفقة المعانى نحو : ما زيد قائماً ، ما زيد قائم ، وما رأيته منذ يومين ومنذ يومان ولا مال عندك ولا مال عندك ومافى الدار أحد إلا زيداً وليس زيد بجبان ولا بخيل ولا بخيلا ، و « إن الأمر كله لله » و « إن الأمر كله لله » قرىء نصباً ورفعا . ثم خلص من هذا القول : لو كان الاعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعانى لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه ، لا يزول إلا بزواله .

وقد استجاب لهذه المقولة بعض المعاصرين والمستشرقين ، ودافعوا عنها (٤٩) وظاهروها بالأدلة ، ثم استغلها فريق الطعن فى إعراب القرآن الكريم ، مع أنها قائمة على افتراضات عقلية قوامها المغالطة . فلو كانت دوافع الاعراب هى مخالفة الوصل للوقف وتيسير النطق بالكلام المتصل ، لاقتصرت تلك التغيرات على الكلام الملفوظ وغابت فى المكتوب منه ، ولكان فى الملفوظ أيضاً يجزىء العربى حركة واحدة لجميع المفردات .

---

(٤٩) من اسرار العربية ص ١٤٢ — ١٥٨ وفصول فى فقه اللغة ص ٣٧٢ — ٣٨٥ ، وكان فى ذلك دعوة الى العامية .

ولا يدفع هذا ما اعتذر به من طلب التوسع (٥٠) فى التكلم بتلوين الحركات ، إذ لو صح الاعتذار بهذا لجاز الرفع والنصب والجر فى الفاعل والمفعول والمضاف دون تخصيص والتزام ، ولم يكن فى المقاصد فساد آنذاك .

فان قيل ، هؤلاء عوام العرب الآن وكثير من الدارسين ، يقرؤون النص الواحد بصور مختلفة من الاعراب مختلة مضطربة ، ويفهمون المراد ، فلا يكون ما تزعمه من فساد للمقاصد والمرامى ، قلنا : لعل قطربا استقى نظريته هذه ، من بيئة مستعربة أو مستعجمة فى عصره ، ثم طاب له أن ينقلها الى لغة القرآن والأدب والعلم ، فكان فى ذلك قياس مع الفارق لا يقره ذو جنان . فالعوام وضعاف الدارسين والمستعجمون والمستعربون حين يقرؤون تلك القراءات المذكورة يتولد لديهم صور مضطربة مسطحة من الفهوم ، تبعا لمستويات القراءة والثقافة والخبرة والتجارب ، ولن يستطيع أحد الادعاء أنهم على مستوى واحد من الاستفادة والاستيعاب ، وما ذكره ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عن العامية فى عهده وتعويضه من الحركات الاعرابية بوسائل تعبيرية (٥١) أخرى ، ليس حجة

---

(٥٠) الايضاح ص ٧١ .

(٥١) المقدمة ص ١٢٧١ — ١٢٧٢ .

على ما ذهبنا إليه ، لأنه يخص العامية وحدها ، وقد احتفظت برتب ثابتة للوظائف النحوية وصحت بطواعية الفصحى وقدراتها البلاغية ، واستوعبت المعانى اليومية والسوقية دون أن تتطاول الى الفن والعلم ، بله نصوص القرآن الكريم .

ولو صح أن الغاية من الاعراب سرعة الادراج لما كان الجزم بالسكون والبناء عليه مسوغ فى الكلام ، لأنه معرقل ومناقض لما وضع الاعراب له . ثم لكان من الأولى أن تتساق حركات أواخر الكلم تبعاً للفظ ما بعدها من الأوائل ، تلقفه فتسقط همزته ويبقى بعضها على سكونه ويحرك بعضها بالكسر ، تبعا للأصول المرعية كالذى يحدث فى اللغات الأعجمية التى لا تعرف الاعراب .

ثم ما الدليل على أن السكون فيه تبطئة للفظ الوصل بين المفردات ؟ إننا نرى اللهجات العامية فى أقطار العرب كلها قائمة على تسكين أواخر الكلمات ، مع أنها وسيلة التواصل فى جميع مستويات العمل والأداء اليومية ، حتى الغناء والتمثيل وكثير من الأناشيد ، على الرغم من أن اللهجات هذه أميل الى الخفة من الفصحى وأكثر تتبعاً لها واقتناصاً ، وهاهو ذا كثير من اللغات الأعجمية يعتمد السكون فى عديد من مفرداته ، ولا يفرط فيه إلا قليلا .

وأخيرا نجد خطربا ، إذا استعرضنا الأمثلة التى اعتمدها لنقض ارتباط المعانى بالأعاريب ، وبعيدا عن الدقة والصواب ، فالجمل « إن زيداً أخوك ، ولعل زيدا أخوك ، وكأن زيدا أخوك » يبدو فيها الاختلاف المعنوى مع نصب الأسماء الأوائل ورفع الثوانى لأن المراد بالاولى التوكيد ، وبالثانية الرجاء ، وبالثالثة الظن . نعم هذا صحيح لا غبار عليه ، ولكنك لو نظرت إليها من الزاوية النحوية ، ومحصت المعانى التى تضمها كل من الثلاث لرأيتها ترتد الى بؤرة واحدة ، هى أن مصدر الخبر فى المعنى مفعول به لفعل فاعله المتكلم أؤكد أخوة زيد لك ، وأرجو أخوة زيد لك ، وأظن أخوة زيد لك . وهذه الوحدة فى الوظيفة الاعرابية النحوية هى التى جعلت « إن » وأخواتها فى باب واحد من شبه الفعل ، لنصب الاسم ورفع الخبر ، وحملت النحاة القدماء على تمييزها من سائر الأدوات فى الوظائف والعلاقات(٥٢).

والفرق بين قولك « ما رأيته منذ يومين » و « ما رأيته منذ يومان » أن المراد بالمدة الأولى زمن محدود بيومين كاملين ، لأن « منذ » فيها هى بمعنى « من » و « الى » أى لابتداء

---

(٥٢) التوضيح ٢ : ١٧ — ١٨ .

الغاية وانتهائها معاً (٥٣) . والمراد بالمدة الثانية أن ما بينى وبين لقائه يومان ، وقد يكون الفراق أقل منهما أو أكثر . ثلاثة أو اربعة أو عشرة من الأيام ، لأن « منذ » فيها هى بمعنى « من » فقط أى لابتداء الغاية ، وأنت أخبرت عن بعض ما مضى دون تحديد دقيق (٥٤) .

والخلاف بين القولين : « لا مال عندك » و « لا مال عندك » أن المقصود بالأول نفى ، وبالثانى التبرئة والتخصيص على نفى وجود حبس المال ، وليس مجرد النفى كالنفى المؤكد الذى استقصى فيه آخر ما يمكن من التوكيد ، ولهذا جعلت الأولى من الشبهات بـ « ليس » أى للنفى المجرد ، والثانية من الشبهات بـ « إن » لما بينهما من معنى التوكيد سلباً وإياجاباً (٥٥) .

والاختلاف بين الجملتين « مافى الدار أحد إلا زيداً » و « مافى الدار أحد إلا زيد » قريب مما لمسناه فى الفقرة المتقدمة ، ذلك لأن « أحد » فى الجملة الأولى جوهرى حضورها ، واسقاطها يخل بالعبارة والمراد ويقطع الصلة بين المستثنى

---

(٥٣) التوضيح ٢ : ١٧ — ١٨ .
(٥٤) حاشية الشيخ يس على التوضيح ٢ : ١٩ — ٢٠ .
(٥٥) التوضيح ١ : ٩٥ .

وما استثنى منه . أما حضورها فى الثانية فعرض لفظى يجوز حذفه مع احتفاظ الجملة بصحتها ودلالتها على الحصر . حتى لقد زعم بعض النحاة أن كل حصر من هذا النوع الخالى من المستثنى منه لابد أن يقدر فيه مستثنى منه محذوف ، فالتوكيد فى الثانية — وهو مفقود فى الأولى مصدره أن « زيد » بدل من أحد ، وللبدل حق تكرار التعبير قبله فعلا كان أو غيره ، وفى هذا التكرار المقدر يتحقق التوكيد . وإلا فالبدل هو المقصود بالحكم ، وإنما جىء بالنفى و « الا » له وحده ، فكان ما زعمناه من الحصر . ولعلك واجد فى تنغيم الجملتين ما يثبت هذا الفرق ، فأنت تقرأ الأولى متواصلة .

مافى الدار أحد إلا زيداً

وتقرأ الثانية : بوقفة لطيفة بعد « أحد » :

مافى لدار أحد — إلا زيد

وفى هذا ما يعبر عن الاتصال بين « زيداً » و « أحد » وعن تكرار التركيب فى البدل وعدمه فى الاستثناء ، وعما ذكره القدماء من أن الاستثناء نصب لتمام الكلام ، والبدل مقصود بالحكم دون المبدل منه .

وقريب من هذا ما تراه بين القراءتين « إن الأمر كله لله » و « ان الأمر كله لله » فالتركيب فى الأولى جملة واحدة ، جاءت فيها « كل » لتوكيد استغراق جنس ما قبلها ، وهو فى الثانية جملتان ، كبرى تشمل جميع الكلمات ، وصغرى هى « كله لله » وخبر لـ « إن » ولفظ « كله » فى الأولى شبيه بلفظ « أحد » الذى جاز الاستغناء عنه افتراضاً ، ولو ورد مثله فى غير القرآن الكريم لجاز فيه ذلك ، بينما هو فى الثانية جوهرى الحضور لأنه عمدة فى الجملة الصغرى . وفى التلاوة يكون الاتصال تاماً بين مفردات القراءة الأولى ، وتكون سكتة لطيفة بعد « الأمر » فى الثانية ، وهذا يعنى أن الخبر بجملتن ، فهو أوكد من جملة واحدة ، وإن خلا مما تعارفه النحاة ، لأنه توكيد لغوى بالتعدد والاستطالة .

أما قولك « ليس زيد بجبان ولا بخيل » أو « ولا بخيلا » فان العطف فى الأولى يحمل معه أصداء التوكيد للنفى بما جلبه من الجر بالباء الزائدة ، وهو فى الثانى خال من ذلك التوكيد لتفلته من لفظ الجر وتحمله النصب محلا بالخبرية . وأما نحو « ما زيد قائما » و « ما زيد قائم » فهو معنى واحد بلا شك ، إلا أنه عبر عنه بلهجتين مختلفتين

وليس من الضرورى أن تتماثل اللهجات فى التعبير عن المعنى الواحد دائماً .

وبعد هذا التحليل للأمثلة التى اعتمدها قطرب ، وبيان ما تحمله من خلافات معنوية ظاهرة أو دقيقة ، يبدو لنا صاحبها إما غافلا عما كشفناه ، وإما مدفوعا بحماسته لما نوهم يتجاهل الوقائع اللغوية ، ويغالط فى البحث والجدال .

على أن هذا كله لا ينفى صحة نظريته فى غير الظواهر الاعرابية ، كالتقاء الساكنين فى كلمة واحدة أو فى كلمتين (٥٦) ..

٦ ـ النظرية الانسانية :

فى التراث النحوى القديم أيضا ، ترى من العبارات ما ينسب العمل الاعرابى الى الانسان ، بتلميح أو تصريح ، فالعرب (٥٧) قد يضمرون فى الفعل الهاء فيرفعون المفعول به نحو : زيد ضربته . وإذا قلت : مررت بزيد الرجل الصالح ، نصبت على المدح ، وإن شئت جعلته بدلا من

---

(٥٦) انظر ص ١٠١ من أبحاث فى اللغة العربية .

(٥٧) الجمل فى النحو للخليل بن احمد ص ٣٦ ، ٦١ ، ٣٧٠ ، ٢٢٥ .

« زيـد » فخفضته . وإن شـئت رفعتـه على إضـمار « هـو » والشعراء والمتحدثون ينصبون ويرفعون ويجـرون ويجزمون ما في عبارتهـم ، تبعـا لضوابط والأصـول لفظـا أو تقـديرا .

وعندما عـرض خلف الأحمـر للحـرف جـاء لمعنى قـال انـه الأداة التي بهـا (٥٨) ترفـع وتنصـب وتخفض الاسـم وتجـزم الفعـل . تقـول (٥٩) : إن زيـدا قـائم . نصـبت « زيـدا » لأنـه اسـم « إن » ورفعت « قـائم » لأنـه خبـر « إن » و « منـذ » نخفض بهـا كـل شيء ممـا أنت فيـه وما قد مضى و « مـذ » تخفض بهـا ما أنت فيـه وترفـع بهـا ما مضى .

وإذا أردت بـ « كـم » أن تأتي بمعنى « بين » نصـبت ما يأتي بعدهـا ...

ونظـير هـذا كثـير جـدا في كتـاب سيبويه وغـيره من زواد التراث النحـوي ، يتعـذر حصـره أو الاشارة إليـه ، هـذا الفـراء يقـول (٦٠) : « السـلام » على معنيين : إذا أردت بـه الكـلام نصـبته ، وإذا قـدرت معـه « عليكم » رفعتـه ،

(٥٨) نصوص نحـوية ص ١٢ ، وقـد سـقط « بهـا » من مطبوعة « مقـدمة في النحـو » فتغـير مـراد المـؤلف .
(٥٩) نصوص نحـوية ص ١٩ ، ٢٥ ـ ٢٦ ، ٣٠ .
(٦٠) معـاني القـرآن ١ : ٤٠ ، ٥٥ ، ٥٧ .

وقـال بعض الشعراء ... فنصـب ، وإن أضفت الى المعرفة شيئا رفعت فقلت : نعـم سـائس الخيـل زيـد ...

تلك نصـوص تحمـل المتكلم تبعـة الاعـراب ، وتنيط بـه القيـام بتغيـير الحركات واستبدال بعضها ببعض . ولمـا اشتدت موجـة الاعتزال ، وتغلغلت في مطـاوي البحث العلمي ، ظهـرت لهـا آثـار في ميدان الاعـراب كسـائر العـلوم الاسلامية ، ومن أصـداء تلك الآثـار ما نسـب الى الانسـان من خـلق أفعـاله بعيـدا عن القـدر ، فكـان أن انسحب هـذا الى معتزلة النحـاة فصاغوا نظـرية تفسـر العـامل تفسـيرا إنسانياً صرفـاً . وقـد مثـل ابن جـني (٣٩٢) هـذه النزعة ، حيـن عـرض للعـوامل اللفظيـة والمعنوية قـائلا (٦١) : « وإنمـا قـال النحـويون : عـامل لفظي وعـامل معنـوي ، لـيروك أن بعض العمـل يأتي مسـبباً عن لفـظ يصـحبه ... وبعضه يأتي عـارياً من مصـاحبة لفـظ يتعلق بـه ... فأمـا في الحقيقـة ومحصـول الحـديث فالعمـل ، من الرفـع والنصب والجـر والجـزم ، إنمـا هـو للمتكلم نفسـه لا لشيء غـيره » (٦٢) .

(٦١) الخصائص ١ : ١٠٩ ، ١١٠ ، وانظر ص ٤٠ ـ ٤٢ من احياء النحـو ، ص ١٣٨ من كتـاب في اصـول اللغـة .
(٦٢) شرح الكافيـة ١ : ١٨ ـ ٢٥ ، ٧٨ .

فهو ينفى أن يكون الصوت أو المعنى عمل ، ويسرد ذلك كله الى المتكلم وحده ، وهاهو ذا الرضى (ت ٦٨٦ هـ) يتابعه فيما ذهب إليه ، ليقول : « الموجد للمعانى وعلاماتها هو المتكلم ، ولكن النحاة جعلوا الآلة كالموجدة لها ، ولذا سميت عوامل » .

ولعلك تلمس فى هذه النظرية تطرفاً فى تمثيل نزعة الاعتزال ، وتحقيقاً للقدرية التى تجعل للانسان حرية العمل ، وترد إليه ظواهر الأحداث فى كثير من المجالات حتى التعبير اللغوى ونحن إذا أطلقنا لها العنان ، وفهمنا معناها فهماً ظاهرياً ، وسايرناها الى آخر مدى ترمى إليه ، رأينا الانسان قد تملك زمام اللغة وتسلط على توجيهها والتصرف فيها ، فكان فى العربية مثلا صور ونماذج مختلفة متناقضة من الأشكال اللغوية كالذى تراه فى اللهجات العامية عند العرب .

بل قد يحق لنا أن نتجاوز تلك الصور اللهجية ، ويصير لى لهجات فردية ، تمثل قدرات كل إنسان على حدة ، وتعبر عن نزعاته فى التقعيد والتأصيل والتفريع ، على غرار ما يتبدى من تميز فى سلوك الأفراد ومواقفهم وعواطفهم وتطلعاتهم . وهذا أمر يرفض الواقع اللغوى ، وينافى

الطبيعة الاجتماعية للغات(٦٤) . نعم قد يكون فى هذا تمثيل لصور العبث الطفولى فى صياغة مالا يعرف من الانجازات الشخصية ، أما اللغة الفصحى منها بخاصة ، فانها بعيدة جدا من الفردية المطلقة ، ولا تعيش إلا فى بيئة جماعية ، ولذلك تتسم بالمحافظة والوحدة والمعيارية .

إن نسبة العمل الصوتى الى الفرد ، دون ضوابط وقوانين ووسائل محددة للاجراء والتنفيذ ، تعنى توزع النشاط اللغوى تبعاً للحاجة الشخصية والميول الفردية والقدرات الخاصة . فاذا الكلام بلا نظام ولا أحكام ، وإذا اللغة مشتتة متفرقة ، لا تنقل فكراً أو شعورا أو تجربة ، ولا تصل ما بين الناس ، فتفقد شخصيتها وخصائصها والغايات التى ولدتها فى الحياة . فان أريد لهذه النسبة أن تفسر ظواهر اللغة كان لابد لها من ربط بمجتمع ينظم ويقنن ، ووسائل تحقق وتنفذ .

والراجح أن هذه النظرية تظن العامل عنصرا ماديا

---

(٦٤) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١ ، انظر اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ١٨٩ — ١٩٠ ، فى اصول اللغة والنحو ص ١٣٨ .

مؤثرا ، ينتج الأحداث والأصوات ولذا تنسب الاعراب الى الفرد ، يكيفه بجهاز النطق ويصدره مع الكلام ، والصق أن العوامل فى كثير من العلوم الطبيعية ليست كلها مؤثرات ، وإنما غالبية عناصر تصحب الظواهر وترافق حدوثها ، كشروط لا كأسباب . وعلل هذا فى العلوم الطبيعية المادية ، فما قولك فى العلوم الانسانية ، واللغة منها بخاصة ؟

٧ ـ النظرية الالهية :

يرى بعض العلماء أن اللغة العربية توفيق من الله ـ سبحانه ـ علم أبا البشر آدم ـ عليه السلام ـ من أصولها ما يحتاج إليه آنذاك ، ثم علم من أنبياء العرب ما شاء حتى ختم ذلك بما آتاه محمدا ـ ﷺ ـ تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة(٦٥) . وكأن هذا المذهب اللغوى منافس لما ولدته توجهات الاعتزال من تحكيم واسع للعقل والانسان ، فى قضايا اللغة ولمسائلها المتعددة . وقد استمر له سلطان على بعض العلماء والمفكرين ، حتى إذا شب المذهب الظاهرى فى الأندلس ، وانتشرت آثاره فى العلوم الاسلامية ، وجد له منفذا على يد ابن مضاء القرطبى فى موضوع ظواهر

(٦٥) الصاحبى ص ٧ ـ ٨ .

الاعراب ، وصار له نظرية تناسب مشربه فى التوقيف والجبر والانقياد ، إذ لا فاعل عند أهل الحق إلا الله ـ سبحانه ـ وفعل جميع المخلوقات هو فعله .

فهذه الأصوات الاعرابية ليست لعامل لفظى أو معنوى ، وليس المتكلم هو صاحبها كما ادعت المعتزلة ، بله هى ، فى مذهب أهل الحق من فعل الله تعالى ، وإنما تنسب الى الانسان مجازا كما ينسب إليه سائر أفعاله الاختيارية(٦٦) . فالله ـ عز وجل ـ هو الذى هيأ للمتكلم إظهارها والنطق بها ، ووجهه الى تحقيقها وتنفيذ صورها فى الكلام ، فالعمليات اللغوية فى الاعراب تنسب الى الله ـ سبحانه ـ ولذا أسمينا هذه النظرية إلهية(٦٧) .

وبناء على هذا استطاع ابن مضاء أن ينكر ضروب العوامل ، ويجرد الكلام من آثارها والاختلافات التى تكاثرت فى الأيام ، ويضع مصطلحات جديدة تناسب مذهبه ، هى

(٦٦) الرد على النحاة ص ٧٧ ، ١٠٦ ، وزعم بعض المعاصرين أن العامل عند ابن مضاء هو الانسان .

(٦٧) راى احد المعاصرين ان تسمى توفيقية ، وما ذهبنا اليه اقرب الى تفكير ابن مضاء وتعبيره .

التعليق والمتعلق والمتعلق به(٦٨) . وكانت هذه تستخدم لدى النحاة ـ كما قال ـ فى أشباه الجمل وارتباطها بالأحداث ، منقلها الى ميادين الأصوات الاعرابية كلها ، وحاول تطبيقها فى نماذج من التراكيب ، ولاسيما التنازع والاشتغال .

وإذا أسقطنا على هذه النظرية أسلوب أصحابها الظاهرى ، ونسبنا الى الله ـ تعالى ـ العمل الاعرابى ، ترتب على ذلك(٦٩) أن تكون قوانين الاعراب ونماذجه فى القبائل كلها واحدة ، وتعذر على العربى أن يصدر عنه ما يخالف أخاه فى لهجة أو لهيجة غير أننا نرى فى قواعد الكلام وأمثلته صورا مختلفة بين قيس وتميم والحجازيين وهذيل وطىء وأزد شنوءة وبلحارث ... حتى فى تلاوة القرآن الكريم ورواية الشعر .

ثم إذا سلمنا جدلا بما تقترحه هذه النظرية وجب علينا أن ندع البحث فى الأسباب والعلل للظواهر النحوية خاصة واللغوية عامة ، بل نسحب ذلك أيضاً الى جميع العلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية ، لأن السبب الأول فى ظواهر

---

(٦٨) الرد على النحاة ص ٩٦ ـ ١٠٢ ، وعندى انه استقاها من شيخ الاعتزال فى النحو والبلاغة عبد القاهر الجرجانى .
(٦٩) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١ .

هذا كله ـ بلا شك ـ هو الله ، عز وجل . والنتيجة الظاهرية إذا هى الانصراف عن دراسة العوامل القريبة والبعيدة لأنها تعود فى النهاية الى هذه الحقيقة الثابتة الموحدة بين جميع مافى الوجود من كائنات وحوادث وأعمال . ومادامت قد عرفت وتحققت فلا جدوى من البحث والمتابعة والاستقصاء .

نعم إن الله ـ تعالى ـ هو الذى خلق كل شىء وبقدر ، ووضع له نواميس دقيقة متواصلة تعاونه ، فاذا قام الانسان بعمل أو فكر أو شعور أو خيال فانما يسير فى هذه السبيل الالهية ، ويحقق قوانينها وما رسمته من حقائق وظواهر وتجارب . بيد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل بينه وبين الوقائع لكل شىء سبباً ، ولابد للمرء ، إذا أراد تحقيق إنسانيته ، أن يتابع البحث والاستقراء والتجريب والافتراض والاختبار ، حتى يصل الى شىء قريب من الصواب فى فهم الوجود ، والتمكن من استغلاله ، وتسخيره للعمل الكريم وعبادة الله الحق ، ولهذا وغيره ذهبت مقولة ابن مضاء جفاء ، وطويت فى مسارب الزمن ، ولم تجد لها فى المصادر النحوية من يتقبلها أو يدعو لها قط . بل إن صاحبها نفسه كان قد وعد ببسطها وتحقيق أبعادها فى

كتاب ، ولم يستطع أن يفعل ذلك ليقدم شيئاً ذا بال يستحق الحياة والخلود .

٨ ـ النظرية الاجتماعية :

كانت الدراسة اللغوية فى أوربا ، حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، تتفرغ للمنهج التاريخى والمنهج المقارن ، وتغفل واقع اللغة كما هو فى حياة الأمم . حتى إذا أطل القرن العشرون وانبعثت النزعات القومية ، وسيطرت الدراسات الاجتماعية على كثير من العلوم ، أصبحت تقودها تبعاً لمقاصدها ، وتزودها بالمناهج والأساليب والأهداف ومن ثم نشأت الفلسفة البنيوية وتسربت الى التفكير العلمى ، فكان لها فى اللغة نصيب موفور ، تطور مع الأيام ، واتخذ أشكالا متوالية ، من وصف مجرد يستبعد كل تحليل ، الى نزعة وظيفية تعول على ظروف المقال والسياق ، فاتجاه تحويلى يرى أن اللغة الفاخرة مستويان : خارجى سطحى هو المبنى ، وداخلى عميق هو المعنى ، فالاهتمام ينصب على دراسة العلاقة بين هذين المستويين وبين النظام الأساسى لقوانين العميق منهما ، قبل تحوله الى مبنى خارجى . وقد صدر عن هذا ميلاد فى التعبير يمثل بنيتين أيضاً ، هما البنية الظاهرة والبنية المقدرة (٧٠) .

---

(٧٠) البنيوية ص ٧٤ ـ ٨٠ و ٩٤ ـ ١٠٠ ، والنحو الوصفى ١٩ ـ ٢٤ ، قواعد تحويلية ص ٢١ ـ ٢٤ .

والناظم لهذه الأشكال المتعددة هو النظرة البنيوية (٧٢) الى اللغة . فاللغة ـ كما ترى ـ ظاهرة اجتماعية (٧٣) يؤسسها المجتمع للرمز الى عناصر معيشته وطرق سلوكه وتفكيره وأحاسيسه ويحدد أساليبها وطرق استعمالها . والبحث فيها إذاً يجب أن يكون بدراسة لغة مافى بيئة وزمان محددين ، بعيدا عن التصورات السابقة والتوجهات الذهنية أو الفلسفية .

وقد كان الاتجاه الوصفى ـ وهو جد السلالة البنيوية ـ أكثر إصرارا على هذه الواجبات وأبعد فى الاجراء لها والتنفيذ . وأشد تعصباً لحرماتها والالتزام بمقدساتها ، وهو ـ فيما أرى ـ منهج بدائى يمثل طفولة البحث العلمى . ولابد أن تتلوه مناهج أوسع أفقاً وأدق نظرا وأوفى إهتماماً ، شأن ما جرى فى الدراسات العربية الباكرة ، أيام الامام على رضى الله عنه ، ثم ما تلا ذلك من تفصيل وتفسير وتعليل ، وإلا عاش الدرس اللغوى فى خطوات طفولية وفوقية سطحية : وغابت عنه عوالم بعيدة الأطراف من المظاهر اللغوية .

وقد تسنى لبعض أبناء العربية أن يدرسوا علم اللغة ،

---

(٧٢) البنيوية ص ١٠١ ـ ١١٢ .

(٧٣) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٨ و ٣٣٧ .

فى أوربا منذ عشرات السنوات ويعاصروا أوج الاتجاه الوصفى هناك ، فكان أن تتلمذوا له وتشبعوا به ، وطاب لهم أن يسقطوه على اللغة العربية ، ويفسروا به ظواهرها وقوانينها والأشكال والأنماط والتراكيب والدلالات (٧٤) • وفى خلال ذلك عرضوا للعمل الاعرابى (٧٥) ، فرأوا أن فكرة العامل فى الدرس اللغوى خرافة يجب أسقاطها ، ليكون للاعراب تفسير صادر عن اجتماعية اللغة •

فالحقيقة — كما يرون — أن اللغة منظومة متكاملة من الأجهزة تتألف عناصرها من أساليب عرفية ، تتعاون لبيان المعانى الوظيفية للغة • فاذا رفع الفاعل فى العربية ، ونصب المفعول وجر المضاف ، فلأن العرف الاجتماعى هو الذى ربط بين هذه الوظائف وصور اعرابها (٧٦) • وعلى هذا فان المجتمع هو البديل من العامل ، وهو الذى يقوم بالعمل الاعرابى ، ويقف وراء هذه الصور المتغيرة للدلالة على وظائف التركيب .

---

(٧٤) ابحاث فى اللغة العربية ص ٩ .

(٧٥) اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٨٥ — ١٨٩ وفى النحو العربى قواعد وتطبيق ص ١٥ ، والمفتاح لتعريب النحو ص ٢١٨ ودراسات فى الاعراب ص ٣١ .

(٧٦) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١ — ٥٢ وأصول النحو العربى ص ٢٧٥ .

وإن العرف اللغوى المرتبط بالمعانى الوظيفية يحقق الأشكال الصوتية الدالة عليها ، دون تدخل من لفظ أو ارادة أو سلطان خارجى •

وقد كان لهذه النظرية أيضا بعض أصداء فى كتب المتقدمين ، كقول الفراء (٧٧) : والعرب تنصب بالذم وبالمدح ، وأما نصبهم « بعوضة » فيكون من ثلاثة أوجه ، وهم يرفعون « سفه » على « نفسه » وهى معرفة ، وربما رفعوا « النازلون » و « الطيبون » وربما نصبوهما على المدح ، ويقولون : عندى عشرون صالحون ، غيرفعون ، ويقولون عندى عشرون جياداً فينصبون ، ومن العرب من يرفع ما تقدم فى « إلا » ، وبعض بنى أسد وقضاعة إذا كانت « غير » فى معنى « إلا » نصبوها تم الكلام قبلها أو لم يتم •

إن هذه النظرية الاجتماعية تفيد البحث كثيرا ، حين يتعرض لتطور اللغه ويتتبع التغيرات الطارئة عليها فى البيئات المختلفة والأزمان المنوالية ، فهى تسر جانباً كبيرا من اللهجات المحلية والعامية ، وتبين أثر الأعراف فى تكوينها ، وتشكيل قوانينها وضوابطها وصورها ، غير أنها تقف عاجزة عن تناول العربية الفصحى وسبر أغوارها ، لأنها تناقض

---

(٧٧) معانى القرآن ١ : ١٦ ، ٢١ ، ٧٩ ، ١٠٥ ؛ ١٣٠ ؛ ١٦٨ و ٣٨٢ .

بفهمها الاجتماعى المتطور ثبات القوانين والضوابط والصور الخالدة ، مع اختلاف الأصقاع والعصور ، وإن كانت تناسب ما انبثقت عنه فى تاريخ الدرس اللغوى الأعجمى .

إنها تعتمد العرف الاجتماعى مرتبطاً بالزمان والمكان ، وتنسى ما له من أسباب مادية ومعنوية ، وعوامل مختلفة ، تؤثر فيه وتوجهه وتغير كثيرا من واقعه وأحكامه ولكى يفهم هذا العرف فهماً جيدا ، لابد من دراسة تلك الأسباب والعوامل ، واستقرار آثارها ونتائجها فى ميادين الحياة الاجتماعية ، واللغة عنصر أساسى فى تلك الحياة .

ثم ماهو العرف اللغوى هنا ؟ إنه ظاهرة الاعراب ، وصورة المختلفة من رفع ونصب وجر وجزم ، والقانون الذى يضبط هذه الصور وينظم مواقعها ودلالاتها ، فاذا فسرنا الاعراب بالعرف كنا كمن يفسر الشىء بنفسه ، ولا يقدم شيئاً ذا قيمة للعلم والبحث العلمى إن العرف الاجتماعى هو مناط كل مظاهر المجتمع من سياسة واقتصاد ودين وتربية ولغة فاعتماده فى هذا المجال ، لتفسير العمل الاعرابى ، سد لأبواب البحث وقطع لسبل التفكير والدراسة ، وتعطيل للانتاج العلمى الايجابى ، شأن ما رأينا من آثار النظرية الالهية .

القانون العرفى يوجه الأحداث والأحوال ، وينتظم أشكالها وصورها المختلفة إلا أنه لا يولد تلك الأحداث والأحوال والأشكال والصور ، ولا ينتجها دون عوامل تساعد وتعين وتحقق . فالقانون إذاً يفرض الاعراب ، فيتحقق فى التعبير عمل إعرابى . أما الدرس النحوى فقد تجاوز ضبط القوانين وصور تحققها منذ ألف وثلاثمائة سنة ، ولسنا مضطرين أن نتجاهل ما مضى ، ليعيد التاريخ نفسه ، ونسترجع المراحل كلها ، ونقف عند أوائلها فى تفسير ظاهرة الاعراب الصوتى .

* * *

وختاماً لهذا العرض المفصل وما وليه من تحليل وتقويم ، نرى ما اتسمت به النظريات المطروحة من قصور فى حل مشكلة العمل الاعرابى ، وأنت إذا أسقطت النظرية الصوتية للخطأ الذى بنيت عليه فى قول من نسبت إليه ، والنظرية الأخلاقية لبعدها عن واقع العربية وإجماع النحاة ، تحصل لديك ست محاولات عجزت كل منها عن استيعاب ظاهرة الاعراب ، ولو جمعت بينها فى أسلوب تكاملى كان لك أن تقول : إن الله — عز وجل — هيأ للمجتمع العربى تأصيل قواعد الاعراب ودلالاته وللانسان فى ذلك المجتمع قدرة

عى استيعاب ما أصـــل وإنجـــازه ، فكانت المعـــانى النحـــوية توجهـــه ، والقرائن النعبيرية تهـــده بالوسائل والأدوات ، وتحدد صـــور الاعـــراب لتشبثها بمـــا يتـــم معناهـــا ويحقق الضـــوابط والقـــوانين فـــاذا هـــو ، متكلماً أو كاتبـــاً أو قـــارئا يقـــوم بتنفيذ تلك الأصـــول والواجبـــات .

بيـــد أن هـــذا افتراض يشـــبه الحـــلول التوفيقية الهشـــة ، أكثـــر ممـــا يعتمـــد الحـــكم الجـــذرى الوافى السديد ، ولا يعفينا من إعـــادة النظـــر فى المشكلة ، لوضـــع نظـــرية واعيـــة متميزة . تعالج واقـــع العمـــل الاعـــرابى ، بفهـــم لجميع مظاهره وما تتسم بـــه العربية من ازدواجية فى تحكيـــم المبنى والمعنى ، وتقدم حـــلا بعيـــدا من التحـــكم والنظـــرات الجزئية القـــاصرة ، فالى فرصـــة قريبـــة تســـمح بذلك إن شـــاء اللـــه تعـــالى ..